السُّبُل الموصِلة إلى الله وعصرُنا

سـؤال: ما هي الشؤون الواجب الانتباه إليها في يومنا الحاضر من زاوية الوحدة والتعاون، بينما يُسعى لإزالة الموانع التي تحول بين الناس وبين الله، ولأداء وظيفة ربط القلوب بالحق؟.

الجـواب: لقـد ظهـرت حتى يومنـا الحاضر طـرق ومناهـج متنوعة تهدف إلى كشف روح وجوهر دين الإسلام المبين؛ فمثلًا الطريق المتَّبع في النقشبندية يُلخّصُ بتلك العبارات الآتية:

يقول الطريق النقشبندي: "إنه لا بد من ترك أربعة:
ترك الدنيا، وترك العقبى، وترك الوجود، وترك الترك" .

وهـذا يعنـي أنـه لا بد من ترك أربعة أشـياء فـي الطريقة النقشـبندية، الأوّلان منهـا: تـرك الدنيـا وتـرك العقبى، أي كما يجب على الإنسـان أن يـردّ مفاتـن الدنيا الجذّابة يجب عليه أيضًـا ألّا يكون دخولُ الجنة مقصدَه الأساسي في عبوديته؛ لأن الداعي الأصلي للعبودية هو "الأمر الإلهي"، أما نتيجتهـا فهي رضـا الحق تعالى، وبهذا الاعتبار فإنه يتوجب على العبد أن يحرِّك مكّوكه بين الأمر الإلهي والرضا الإلهي، وينسـج نسيج حياته على هذا وينقش نقشا يدفـع حتى الملائكةَ إلى الشعور بالحيرة والإعجاب به.

علاوة على ذلك فإنه ينبغي على سالك هذا الطريق أن يترك نفسه أيضا، وأن يتخذ موقفًا حازمًا إزاء رغباتها وأهوائها التي لا تعرف الشبع، وعليه أن يكون في استغناء مطلق عن الخلق، أما في النهاية فيلزمه أن يترك كل أنواع الترك هذه، وأن يمحو فكرة الترك من ذاكرته تماما، بمعنى أنه يجب عليه ألا يخطر بباله: "لقد تركت هذا، وتركت ذاك"، وينبغي عليه ألا يشرع في الإعجاب بنفسه وتقديرها بسبب التضحيات التي قام بها باسم "الترك"، وإذا ما خطرتْ بباله أو حتى لاحتْ في خياله فكرة مثل: "أنا بَطَلُ ذا وذاك من أنواع الترك"، فعليه أن يهرع من فوره إلى الاستغفار.

خصائص عصر الأنانية

لكن الأنانية انتشرت كثيرا في يومنا الحاضر، وخضع الناس لتأثيرها في كل أحوالهم، فلا يمكن تركٌ بهذا الشكل في يومنا الحاضر؛ لذا فإن فضيلة الأستاذ بديع الزمان يتناول المسألة في "المكتوبات" بشكل آخر قائلًا:

> "أيها العزيز! في طريق العجز يستلزم أربعة أشياء: الفقر المطلق والعجز المطلق والشكر المطلق والشوق المطلق".

إنه يقول ذلك، ويصرّح بضرورة التمسك الشديد بهذه الأسس الأربعة في يومنا الحاضر، أي على الإنسان أن يدرك أولا أنه العاجز المطلق ويعترف بذلك، وأن يرى أنه لا يستطيع فعل أي شيء على الإطلاق ما لم يأذن الله، وعلى هذا النحو عليه أن يعترف بفقر نفسه، بدرجة يدرك دائما أن كل ما بيده إنما هي تلك الإمكانيات التي وهبه الله إياها، وعليه أن يجيش شوقا وشكرا أمام النعم والإمكانيات التي أحسن بها الله تعالى عليه رغم عجزه وفقره، وأن يشكر الله تعالى في كل حركاته وسكناته، وعليه أن

يجتهد بهيَجانٍ وعشقٍ، وشوقٍ واشتياقٍ لا يعرف الشبع... ويسعى دون توقف كي يبلغ اسمه تعالى إلى القلوب والأفئدة، ويذكر بديع الزمان في ذيل الكلمة السادسة والعشرين أن منهجه له أربعة أسس هي "العجز والفقر والشفقة والتفكّر"، وهذا ما يشير إلى وجود ستة أبعاد لهذا المنهج المطروح.

وأنا على قناعة بأن ملاحظات بديع الزمان -التي تُقنع عقلَ إنسانِ عصرنا وتطْمئن قلبه- ملاحظاتٌ هامة للغاية يتوجب الوقوف عليها ودراستها، والواقع أن الكثيرين من الذين استفادوا من آثاره ممتنّون ومدينون له بالجميل؛ لأنه لقّن القلوب الحقيقة الإلهية في مواجهة عواصف الكفر والإلحاد، وجعل الاسم النبوي الجليل يرفرف مرة أخرى في عنان القلوب، وقدّم مشهد الحشر والنشر إلى العقول حتى صارت وكأنها تراه رأي العين، في الحقيقة إن التعبير عن مشاعر الشكر هذه التي يتم الحديث عنها بالعديد من البيانات والكلمات أمر واجب؛ لأنه ورد في الحديث الشريف: "**مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَ**"(٧٧)، وهذا يعني أنه يجب أن يتوفر طابع الشكر، والإحساس بالنعمة لدى الإنسان أولًا؛ ولذلك فإنه من الطبيعي أن يتوجه هؤلاء الناس له بتقدير أكثر دون غيرهم لأنهم حظوا بنعمة كالتعرف على الله والرسول والحشر والنشر على يد ذلك الشخص، غير أن تقديرا على هذا النحو ينبغي ألا يؤدّي إلى أنانية الجماعة، وينبغي ألا يُفسح المجال لآراء مبالغة؛ لأن ثمة كثيرا من الناس يسيرون في سبل مختلفة داخل الجادة الإسلامية الكبرى حيث وصلوا بواسطة ذلك السبيل إلى الإيمان، وبلغوا ساحل السلامة بعون الله وعنايته، وحظوا برضاه تعالى، وبهذا الاعتبار فإنه ينبغي ألا تتحول المسألة من

(٧٧) سنن الترمذي، البر والصلة، ٣٥؛ سنن أبي داود، الأدب، ١١.

التعبير عن مشاعر المنّة والشكر إلى نوع من المباهاة والدعاية والإعلان أبدًا، وينبغي ألا يتم الدخول في الانحصار الفكري النابع من حب النفس؛ أجل، ينبغي ألا يتم الخلط بين الوسائل والمقاصد، وينبغي ألا يُنسى أن المقصد الأصلي هو تحصيل رضا الله تعالى في أي سبيل كان.

الأرواح التي وصلت إلى الحق بواسطة الهجرة

الحقيقة أن أولئك الناس الذين تركوا منازلَهم ودورَهم وأوطانَهم، وشدوا الرحال بهدف إبلاغ اسم الله الجليل إلى كل أنحاء العالم هم في سبيلهم للحصول على رضا الحق تعالى في خط مختلف بواسطة إعلاء كلمة الله، أريد أن أذكر شيئا يمكن أن يُعدّ علامة مؤيدة لكون هؤلاء على الصراط المستقيم: شوهد سيدنا ﷺ في الرؤيا أحيانا وفي الواقعة أحيانا أخرى مئات وربما آلاف المرات، وحُظي ببشارته، إذ يقول أحدهم على سبيل المثال: جلسنا ذات ليلة مباركة، فصلّينا وسلّمنا على سيدنا رسول الله ﷺ آلاف المرّات حتى الصباح، بعد ذلك تمثلت روح سيد الأنام عليه أكمل التحايا وأتمّ التسليمات وقال: "إنني أؤيّدكم في هذه الخدمة"... ويقص صديق آخر حادثة شاهدها في واقعة: "كانت ثعابين كبيرة تهاجم الأصدقاء ولم يتمكّنوا من التغلّب عليها، إذا بالباب انفتح فجأة، فدخل منه بعض الناس النورانيين، وكان على رأسهم سيدنا رسول الله ﷺ وبيده عصاه المباركة، وبعد أن أنزل ضربة على رؤوس الثعابين قال: "لا تخافوا، إنا ناصروكم" .

والحقيقة أنني أشعر بالخجل ويتحرج صدري من قص هذه النوعية من الأشياء غير الموضوعية؛ غير أنني أرى فائدةً في الحديث والتعبير عن هذه النوعية من المشاهدات أحيانا؛ نظرا لأن المسألة لا تتعلق بي، والواقع أنني نظرت إلى نفسي دائما من زاوية دائرة الخدمة التي نحن

نعمل في إطارها بدافع وعناية من الله: "لو أنني أَعطيت لمقامي حقَّه واستثمرتُ الإمكانيات والفرص التي أنعمها الله عليّ واغتنمتها جيدًا، لكانت هذه الخدمة تسير بشكل أسرع، ولو كان على أيدى أناس أكثر إخلاصًا لأمكن إنجاز أعمال أكثر أهمّية، علاوة على ذلك فمثل هذه المشاهدات ينبغي اعتبارها أنها نوع من الحلويات التي تُعطى للأطفال بهدف التشجيع وإثارة الأمل، وإلا فإنه ينبغي على رجل الحقيقة الصادق ألا يطلب أيًّا من هذه على الإطلاق، حتى إنني أنا الذي أكثركم إثمًا أقول: "إلهي! لا تجعلنا نُذهِب في هذه الدنيا من النعيم التي ستمنحها إيانا في الآخرة! اللهم لا تلطمنا بلطمة الآية الكريمة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ (سُورَةُ الأَحْقَافِ: ٤٦/٢٠)، غير أن بعض الناس بالرغم من كل شيء، يرون هذه النوعية من الحوادث لها أهمية من أجل تقوية الروح المعنوية في الفترات الصعبة والقاسية، ولا شك أنه لا حرج في الحديث عنها إن كانوا يرونها تأييدا نبويّا.

ومن جانب آخر فإن كان مهاجرو الفكرة المثالية هؤلاء يَلقون قبولًا حسنًا في الأماكن التي يذهبون إليها بالرغم من وجود العديد من الدوائر المعادية الراغبة في عرقلة تبليغ دين الإسلام المبين إلى الأفئدة والقلوب، فإنه ينبغي اعتبار هذا عناية من الله وتأييدًا منه.

إن نجاح هؤلاء في المناطق الجغرافية المتباينة يُعتبر مؤشرًا آخر على التأييد الإلهي والتأييد النبوي لهم، بالرغم من أنهم لم يحصلوا على دورات في فن التعايش مع أصحاب الثقافات والآراء المختلفة في عصر العولمة؛ وبهذا الاعتبار يمكن القول بأن هذه الخدمات المنجزة وافقت المراد الإلهي، لأنه لم يحدث انفتاح بهذا القدر في أيّة فترة من تلك الفترات التي تلت الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

أجل، إن سعي هؤلاء الناس في تبليغ الحق والحقيقة في كل أنحاء العالم متكاتفين، هو ميناء آخر للسير إلى الحق، ووسيلة أخرى للسرور؛ هؤلاء الذين ساحوا في الطرق في سبيل فكرة مثالية سامية بتواضعٍ وخجلٍ ونكرانٍ للذات، استنادًا إلى أسس: "العجز والفقر والشكر والشوق والتفكر والشفقة".

والحاصل أن الله هو الغاية لجميع القلوب المؤمنة، وأن البشر مسافرون، وأن السُبُل بعدد أنفاس الخلائق، وبهذا الاعتبار فإنه يجب علينا أن نقدّر كل مَن يسعى لإعلاء كلمة الله، وأن نضرع إلى الله وندعوه بالتوفيق لجميعهم.

الإمكانيات الدنيوية والمعيار في التخطيط للمستقبل

سؤال: أوصى رسولنا ﷺ أن يعيش الإنسان في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل، حتى إن بعض السلف عدّ تفكير الإنسان فيما سيأكله ويشربه في غده من "طول الأمل" و"توهُّم الخلود"؛ غير أن الناس يرون التخطيط للمستقبل بدءًا من التفكير في الشهادة الدراسية والعمل في مهنة معينة مثلا أمرًا ضروريا في يومنا الحاضر، فماذا ينبغي أن يكون المعيار في التفكير للمستقبل؟.

الجواب: يقول رسولنا الأكرم ﷺ كما ورد بالسؤال: "**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**"(٧٨)، و"الغريب" هو الإنسان الذي غادر بيته ووطنه ونزل في مكان يعيش فيه ضيفًا وبشكل مؤقّت، ولا شيء يربطه بما حوله من الأشياء والناس، أما عبارة "عابر سبيل" الواردة في الحديث الشريف فإنها تعني المسافر، والواقع أن الإنسان مسافر ينتقل من رحم الأم إلى مرحلة الطفولة، فالشباب، فالكهولة، فالشيخوخة، ومنها إلى القبر، ثم إلى حياة البرزخ، ثم إلى المحشر، وهكذا يوصي سيدنا رسول الله ﷺ أن نعدّ الحياة الدنيا في هذه الرحلة وكأنها عبور من أحد جانبي الطريق إلى الآخر.

(٧٨) صحيح البخاري، الرقاق، ٣.

ورُوي أن رسولنا الأكرم ﷺ نام على حصير، فترك الحصيرُ أثره في جنبه الشريف؛ ولذلك فقد أشار عليه سيدُنا عمر ﷺ بأن يستفيد قليلا من نعم الدنيا قائلًا وعيناه تذرفان: "يا رسول الله! إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله!..." فأجابه ﷺ: **"مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"**(٧٩)، ونحن جميعًا نعلم أن رسول الله ﷺ لو شاء لقدّم الصحابةُ كلَّ ما في بيوتهم ودورهم وفرشوه له، لكن مفخرة الإنسانية ﷺ عدّ نفسه مسافرًا استراح مؤقتًا تحت شجرة وهو في طريقه إلى مكان يقصده، ثم راح وتركها، وصرّح بأن علاقته بالدنيا عبارة عن هذا فحسب، فكانت حياته دائمًا وفق هذا المعيار حتى لحظةِ صعوده إلى أفق روحه.

الثروات التي تُنفَق في سبيل الحق

عند النظر إلى المسألة عموما، وعند الأخذ بأوامر الدين ونواهيه كاملة يُفهم من عبارات رسولنا الأكرم ﷺ أنه ينبغي اجتناب الانغماس في الدنيا طلبا للمُتَع والملذات الشخصية فحسب، لا إهمال الدنيا بالكلية، فمثلا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٨/٤١)، وحكم هذه الآية أن خمس الغنائم متروك أمرُه لرسول الله ﷺ كي يوزّعه على المذكورين في الآية، ولو أن رسول الله ﷺ خصّ نفسه بعُشر هذه الحصة، لعاش حياة مرفَّهة جدًّا، ولأقام في القصور، إلا أنه ﷺ آثر أن يعيش حياته السنية في حجرة السعادة التي هي مجرد حجيرة صغيرة، لدرجة أنه ﷺ كان -كما روتْ أمّنا عائشة ﵂- عندما

(٧٩) سنن الترمذي، الزهد، ٤٤.

أراد أن يسجد أثناء قيام الليل يمسّ قدمي السيدة عائشة بيده، فيتسنى له السجود بعد أن تسحب ﷺ قدميها[٨٠]، أي إنه ﷺ ما كان يجد في الحجرة التي يعيش فيها -أرواحنا فداء لتلك الحجرة- موضعًا للسجود، لكننا حين نضع أمام ناظرينا خُمُس الغنائم التي تُركت بأمر الله تعالى تحت تصرفه نرى أن سيد الأنام عليه ألف ألف صلاة وسلام فضّل أن يعيش حياة بسيطة جدا واستخدم هذا كله في سبيل الله، برغم امتلاكه من الإمكانيات ما يكفي لتجهيز جيش كامل؛ أجل، لقد كان يتحرك في حياته الشخصية والبدنية، وفي المتع والملذات بحكمة وضبط للنفس وبتوازن تامّ، بل إنه مثال الاستقامة التي أمره الله بها في قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ١١/١١٢).

وَرَثة روح الاستغناء

لا ريب أن رسول الله ﷺ كان شخصا فريدًا وفائقًا لا مثيل له في صلته بالله تعالى ومنزلته ومكانته وسعته وعمقه؛ أجل، لقد كان ﷺ ساميَ الطبيعة ومتميزَها حتى إنه يشير إلى أنه يشعر بمتعة ولذة من العبادة والطاعة، كالمتعة التي نشعر بها نحن من المأكل والمشرب وغيرهما من الملذات الجسمانية؛ ولذلك كان يستأذن زوجاته ليلًا كي يروي عَطَشه من الحق، فيقوم ليله ويُدني فاه من نبع العبودية ينهل منه، وهو بهذا الاعتبار لا يُقارَن به أحد حتى صحابته الكرام؛ أجل، لا يمكن مقارنة أحد به ألبتة، بل إنني ربما أذهب إلى أبعد من ذلك وأقول -إن لم يُعتبر هذا نوعًا من التجرؤ- إننا نخطئ حتى لو أننا قارنّا به ﷺ جبريل عليه السلام؛ لأن جبريل عليه السلام لم يكن يحمل على عاتقه أعباءً جسمانية ولا نفسانية، أما سيدنا رسول الله ﷺ فرغم

(٨٠) انظر: صحيح البخاري، الصلاة، ٢٢.

أنه يحمل هذه الأعباء، قد سبق الملائكة الكرام؛ ولهذا السبب كان عليه ألف ألف صلاة وسلام -مثلما عاد من المعراج إلينا- يتنزل من أفقه إلى مستوانا كي يقدّم رسائله لنا ويرشدنا إلى الطريق الصحيح ويعرض أمامنا قضايا موضوعية تتناسب مع منطقنا وأسلوب معيشتنا.

وعندما ننظر إلى المسألة في إطار هذه المعايير، يمكننا القول بأنه ينبغي أن يعيش الناس حياتهم الشخصية في استغناء عملا بالرسائل التي بلّغها ﷺ لأمّته، وإن تعذرت مقارنة أي إنسان به، فالواقع أن الأكابر المتأسّين به قد فضّلوا أن يعيشوا مستغنين، ولو نظرتم إلى نمط حياة الأستاذ بديع الزمان مثلا، لرأيتم أنه ارتضى الاستغناء دستورًا مهمًّا في حياته كلها، فقضى أيامًا فوق شجرة أحيانًا، وشهورًا في قمة جبل أحيانًا، وأحيانًا أخرى في منزل خشبي غير ملائم للإقامة إطلاقًا؛ والحاصل أنه فضّل أن يعيش حياة بسيطة حتى آخر عمره، وفي الحقيقة أن الذين حقّقوا إصلاحا وتجديدا في مجتمعاتهم قد عاشوا مستغنين عن الدنيا، ولو كانوا من الذين يدينون غير ديننا وينتمون إلى ثقافات أخرى.

ومن هذه الزاوية يمكننا القول إن هذه الخصائص التي تُعتبر أمارة للعظمة في القيم الإنسانية العالمية يمكن توفرها عند أي إنسان، والفارق هنا هو أنها أكثر سلامة في القلوب المؤمنة، وأنها تَعِد بالثبات والبقاء؛ لأن التأييد الإلهي ظهيرهم، أما الآخرون فإنهم -وإن تَحَلَّوا ببعض الصفات الإيمانية مثل الاستغناء والإخلاص في العمل والإيثار- إلا أنها لا تَعِد بالاستمرار والبقاء، ولكن ينبغي أن نعرف أن الله ﷻ يُوفّق مَن اتّصفوا بالصفات الإيمانية في أمورهم الدنيوية، لأن معاملة الله ﷻ لعباده إنما هي بحسب تلك الصفات؛ ولذلك فإن الإنسان لا ينبغي له أن ينتظر من الله ما يليق بكرامة الإنسان إذا كان خمولا وأنانيّا وطمّاعا يلهث

وراء جمع الأموال والثروات ويمضي عمره في ملذّاته فقط، لأنه بعُد عن حقيقة الإنسانية، والواقع أن المؤمن الذي يجب عليه أن يرقى باستمرار نحو الكمال، يستحيل تصويب انغماسه في الدنيا وحياتِه في فلك أهوائه، وتحركه وفقا للنزوات الحيوانية، ومن المؤكد أن طرز حياة كهذا ليس هديًا نبويًّا.

سبيل تخليد الإمكانيات الزائلة

لا ريب أننا لا نقصد مما نقوله أن ينزوي الإنسان في زاويةٍ كما يفعل بعض الدراويش ويهجر الدنيا بما فيها، ويُعرض عنها كلية؛ لأن هذا يتنافى مع الأمة القوية، فعلى المسلمين إذًا أن يتزودوا بالإمكانيات الدنيوية قدر ما أمكن، لكن يجب عليهم أن يستثمروها في سبيل الآخرة، وفي هذا الصدد أود أن أنقل لكم شيئا مما كان يطوف بخيالي أحيانا وتتمناه نفسي: أتمنى أن لو دخلتُ غرفتي فوجدت فيها بضعة تريليونات من الليرات، ثم وزّعتُ هذا المال على أصدقائي حتى يتسنى لهم فتح مدارس ومعاهد ثقافية في أرجاء العالم كافة، ليفتحوا قلوب الناس بها، لا ريب أن هذا مجرد خيال وحلم، وكل ما أقوله يذهب سُدى، لكن لو راودكم أنتم مثل هذا الخيال بدلا مني وأفصحتم لي عنه لقلتُ لكم: حتى بمثل هذه العملية الخيالية تنالون ثواب العبادات والطاعات؛ لأنه من المهم جدًّا الانشغال بهَمّ توصيل إلهامات أرواحنا للآخرين، وإنارةِ العوالم بالمشعلة النورانية التي نحملها في أيدينا، وللوصول باسم النبي الجليل إلى كل بقعةٍ تطلع عليها الشمس؛ ورَبْطَ كل شيء حتى الأحلام بهذه الغاية الْمُثلى.

وبالرجوع إلى موضوعنا الرئيس نقول مرة أخرى إنه لا حرج من التزود بالإمكانيات والقوى الدنيوية بعد استخدامها بالشكل المناسب، لكن ما يسوق الإنسان إلى كارثة محققة في الدنيا والآخرة هو المحبة

الشديدة للدنيا والولع بها ويعبّر عنهما حُبُّ المال وحب المنصب وحب المنزل وحب الأولاد وحب الشهوات، ينبغي للإنسان أن يكون عبدًا للحق ليس إلا، ويحبَّ كلَّ شيء لأجله تعالى.

أجل، يجب ذكر الله في بداية كل أمر ونهايته وأوله وآخره، وربطُ كل شيء برضاه تعالى، وإلا فإنْ تحركْنا وفقا لرغباتنا النفسية وأهوائنا الجسمانية تضاءل كل شيء في تلك البؤرة الضيّقة، وحينذاك نقول: يا أَسَفَى علينا وعلى تلك الإمكانيات! وفي رأيي أن على الإنسان ألا يكون سجين هذه البؤرة الضيقة، وهو من قَدْره يماثل قدر الكون، ولديه قوة كامنة ينقاد له العالم بها، وهو من خلقه الله مهيّأ لإحراز مقامات في الآخرة عرْضها كعرض السماء والأرض، بل عليه أن يهرْول وراء الأبدية والخلود، وأن ينشد رضى مولاه ﷻ على الدوام، فلا ينبغي له أن يتمنى أن يكون فاتح إسطنبول إن لم يَصِل به هذا الأمر إليه سبحانه؛ لأن قيمة مثل هذا الأمر ليست من ذاته، فالذي أكسبه القيمةَ هو سعة النية؛ بمعنى أن الفتح إن ارتبط بغايةٍ مُثلى مثل نيل بشارة النبي ﷺ، ورفْع كرامة الإسلام ورعايته، والبلوغ باسم النبي الجليل إلى كل بقاع الأرض، عند ذلك يكتسب فتحُ إسطنبول قيمةً.

دَوْر النية

إن هذا الأمر يسري أيضا في أيامنا على كل جهد مبذول للتخرج في بعض المدارس والاشتغال ببعض المهن، وبعبارة أخرى لو أن الإنسان يريد أن يقوم بأعمال تخدم بلده وغايته المثلى -ولِتحقُّقها شروطٌ لا بد منها- فعليه أن يراعيها، فمثلا على الطالب الذي يريد الالتحاق بجامعة رفيعة المستوى أن يقول في نفسه: "لن أستطيع دخول الجامعة دون الانتهاء من مدرستي، ولن يتسنّى لي الحصول على مناصب تتيح

لي خدمة أمتي دون التخرج في الجامعة، ولن أحظى على أي مكانة دون الحصول على هذه المناصب، فإن لم أحظ بهذه المكانة فلن أستطيع القيام بشيء في سبيل خدمة بلدي وغايتي المثلى"، إذًا عليه أن يكون في نيته من البداية مثلُ هذه الغاية الجليلة.

أجل، إننا أحيانا لا نملك -مع الأسف- إلا أن نلوم السابقين قائلين: "لِمَ لم ينتبهوا إلى بعض الأمور، ولماذا خلّفوا وراءهم ثغرات في بعض المجالات؟"؛ ولذا علينا أن نبذل كل جهودنا لكي نسدّ الثغرات التي خلّفها السابقون، وألاّ نفسح المجال لظهور ثغرات جديدة، حتى لا يلومَنا مَن بعدنا، ومن ثمّ لا بد من اجتياز العقبات حتى لا يلومنا أبناؤنا وأحفادنا، وعلى ذلك لا بدّ من أن نكون أولًا أصحاب إيمان قوي، وألا نقصّر في أداء العبادات والطاعات، وأن نفعل كل ما نفعله بنيّة صادقة... فإنْ تحقق ذلك فإن الدراسة والتخطيط لها يُكسبه ثوابا مثل العبادات؛ لأن الوسائل المستخدمة في أي أمر تصطبغ بصبغة النية فيه، وعلى ذلك فلا بد من أداء أي عمل بما يتوافق مع نسيج النية.

والحاصل أن المؤمن لا يقوم ولا ينبغي له أن يقوم بأي أمر مطلقا لكسب ثناء الناس وامتداحهم أو لمجرد حسابات دنيوية، بل إن عليه أن يسعى سعيًا حثيثًا لتبليغ الآخرين القِيمَ العالية المنبثقة من جذوره الروحية والمعنوية، ويبذل جهده دائمًا ليكون لهذه القيم كلمتها في التوازن العالمي، ولا جرم أنه في هذا السبيل سيواجه كثيرًا من المصاعب وسيتجرع الآلام ويَئِنّ وينقصم ظهره غمًّا وكمدًا، ولكنه يعرف جيدًا أن المعاناة والمشقات التي يكابدها الإنسان وهو يتحرك في فلك غاية مثلى تفضي به إلى ثواب عظيم لا يصل إليه وإن سلك مسلك أهل السير والسلوك الروحاني.

عفّة الفكر

السـؤال: ثمة مصطلحـات تذكرونها أحيانًا مثل "عفّـة الفكر" أو "شرَف الفكر"، فهلّا تفضّلتم بإيضاح المراد بهذين المصطلحين؟

الجـواب: الفكر والحركة من أهمّ المقومات التي توصلنا إلى حقيقة الوجـود، وبهما نجدد كياننا المعنوي ونحافظ عليه من العواصف العاتية، ثـم إن الفكـر بالمعنـى الإجمالـي وإن كان قبـل الحركـة إلا أنـه بالمعنى التفصيلـي ينمـو داخلها، والمراد أن من شُـغل بموضوع مـا وأعمل فكره وعقله فيه واجتهد في قراءته قراءة صحيحة، لن يستوعبه ويستمرئه إلا بعد الشـروع في تطبيق هـذه الأفكار والتعايش معهـا؛ لأن الأمر يقتضي رُؤى جديدة بعد الشـروع في تطبيق الخطة، وهذا يسـوق إلى أفكار أكثر عمقًا، وبهـذا تسـتقر الأفـكار الإجماليـة على أرضيـة متينة؛ وأهـمّ مبدأ نحرص عليه في جميـع أفكارنا ونيّاتنا التي تحتضن الحركة هو عِفّة الفكر، سـواء أكان الفكـر إجماليًـا أم تفصيليًـا؛ ومن ثم علينا أن نعدّ الـولاء لعفة الفكر مـن مقتضيات شـخصياتنا، وأن نحافـظ عليها كأنه مـاء أعيننا مهما كانت الظروف والأحوال.

الأفكار السليمة منجم للتصرفات السليمة

قد نلقى من بعض الناس معاملة فظّة، لكن لا ينبغي أن يسوقنا خطؤهم إلى خطأ آخر البتة؛ أجل، علينا أن نلزمَ قيمنا الأساسية مهما كانت الظروف والأحوال؛ أمّا إن حدث انحراف في أفكارنا وسلوكنا ردًّا على تصرفات هذا أو ذاك، فسيتولد عنه سلسلة انحرافات بلا ريب، وهذا سيؤدي في النهاية إلى أن نَضِلّ الصراط المستقيم؛ والحق أنا ينبغي ألا نتيح لأحد أن يشغل أذهاننا بَلْهَ أن ينحرف بنا عن الجادّة، وفي سبيل المحافظة على عالمنا الفكري ومنهجنا الفكري وشلّالنا الفكري علينا أن ننأى بأنفسنا عن أي استفزاز مؤثر؛ لأن الهدف الأساس للاستفزازات صدُّ الساعين في طريق الخير عن بلوغ غايتهم المثلى، ومحاولةُ توجيههم إلى وجهة أخرى، أي فالمقصد الرئيس هو قطع الطريق لئلا نبلغ الهدف وللعدول بنا إلى وجهة أخرى.

إذًا لا ينبغي أن تؤثر الافتراءات في رواد الفكر السليم، بل عليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم في المحافظة على عفّتهم وشرفهم على الدوام، وهذا لا يمنعهم حقّهم في دحض الافتراءات بالبيان أو التصحيح أو التفنيد؛ أجل، لا بد أن نفكر دائمًا باستقامة حتى تستقيم الأفعال والتصرفات التي ستُبنى على هذا الفكرِ النظريّ؛ أمَّا لو ساقتنا كل عاصفة تهبّ علينا واطَّرَحتنا جانبًا، نكون قد ضللنا السبيل الذي كنّا نسير فيه، وسلكنا دروبًا وعرة، وأخطأنا الطريق في النهاية.

مَن حسُنتْ فِكرتُه استمتع بحياته

يقول النبي ﷺ "**أَفْلَحَ مَنْ كَانَ سُكُوتُهُ تَفَكُّرًا، وَنَظَرُهُ تَعَبُّرًا**"(٨١)؛ يدل هذا

(٨١) الديلمي: مسند الفردوس، ٤٢١/١.

البيان النوراني أن المرء يُؤْجَر على حُسن الفكرة كما يؤجَر على العبادات، هذا وإن الانشغال بالأفكار التي لا سبيل إلى تحقيقها يعد إهدارًا لطاقتنا، لكنني أرى أن الإنسان لو تمنّى خيالًا أن لو كانت لديه المقدرة على تغيير صورة هذا العالم ووضْعه في شكل أبهى وأكثر حيوية، فإن تصورات هذا الإنسان وخيالاته تصطبغ بلون العبادة وصورتها؛ إن الوظيفة التي تقع على عاتق المؤمن هي الانشغال بالأمور الحسنة على الدوام، والسعي في إطار هذه الأفكار الحسنة، يقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي -طيّبَ الله ثراه- في كتابه "المكتوبات": "مَنْ حسُنت رؤْيته حَسُنتْ رَوِيّتُه، ومن حسُنت رويّته استمتع بحياته"(٨٢)؛ أي إنما تغدو حياة الإنسان متعة لها نغمة، ويعيش كأنه يسير في أروقة الجنة إذا حسُنتْ فكرتُه.

لدى الإنسان استعداد فطري للتفكير؛ فإن لم يوجّه استعداده هذا إلى طريق إيجابي، فربما يجرّه هذا الاستعداد إلى سبل سلبية كالأنانية والبوهيميّة؛ وليس هذا في التفكر فحسب بل إن التصورات والتخيلات التي لا تُستخدم في الخير قد تضع الإنسان وجهًا لوجه أمام هذا الضرب من السلبيات؛ فعلى المؤمن أن يتحرك دائمًا بالقيم التي يؤمن بها، وأن يحفِل بها، وأن يقرأ ويفكّر دائمًا، وعليه أن ينهل ويتغذّى من المصادر الأساسية باستمرار دون أن يسمح بحدوث أي فراغ في حياته، وعليه أن يعطي إرادته حقَّها فينأى بعيدًا عن مشاعر وأفكار تأباها آلية الوجدان، فإن هبّت عليه رياح سلبية رغم كل جهوده، فعليه أن يحاول التخلص من هذا المناخ كما أوصى بذلك رسول الله ﷺ؛ لأن مَن أبحر في خيالات تخلّ بعفّة الفكر يصل إلى نقطة يبدو فيها كمن أبحر بعيدًا جدًّا عن الشاطئ، فلم يعد يعثر من جديد على قارب يرجع به عن السلبيات التي غاص فيها؛ أجل، إن عجز الإنسان عن قطع السبيل على الحقد والكره والغيظ

(٨٢) سعيد النورسي: المكتوبات، نوى الحقائق، ص ٥٧٥.

والشهوة الجارية في عروقه، فقد تحطّم هذه الأمور السدودَ وتستصدرُ قرارات منحرفة تجعل المرء يرتكب أعمالًا مشينة.

على الإنسان أن يوفّي إرادته حقَّها في هذا الباب من جانب، وأن يسأل الله تعالى الحفظ من الجانب الآخر، فإن استطاع فعل هذا عاش حياته -بعون الله تعالى- في الحِمَى وكَنَفِ الحفظ، لكن لا بد من اليقظة والحذَر الدائم، فلا يَأمن أن ينقلب على عقبيه حتى أكثرُ الناس استقامة، وما علينا عندما نهتز ونوشك أن نسقط إلا أن نقوّم عِوجنا، ونتوجه إلى الله تعالى من جديد قائلين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٢٣/٧).

الأهواء والرغبات بلباس الفكر

ومما ينبغي الانتباه إليه من أجل عفّة الفكر أن الأهواء والرغبات قد تتدثر بدثار الفكر، وتنحرف بالعبد عن الطريق القويم؛ والمعايير الشرعية هي وحدها المقياس في تحديد ما هو هوًى ورغبةٌ وما هو فكرٌ، فإذا ما ثُرْتَ على إنسان لتصرفات وأقوال أغضبتك وآذتك، فانظر أولًا ما الذي أغضبك: أهو الإضرار بالحق والحقيقة أم ماذا؟ فإن لم يكن ثمة ضرر فأنت إنما تثور وتنفعل من أجل نفسك، فردّ الفعل الذي وقع مصدرُه الهوى إذًا، أما المعيار الذي وضعه القرآن الكريم عند التعرض للأذى فهو ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سُورَةُ فُصِّلَتْ: ٣٤/٤١)، وعملًا بهذا المعيار فإن معاملة من آذاكم تكون بمحاولة كسرِ شدة غضبه وانفعاله بالابتسامة والوجه الطليق، أما إيذاء المقدسات والحقوق العامة فليس لك أن تعفو عنها؛ لأنك إنما تعفو وتصفح عن حق تملكه فحسب، أمّا حقوق الله تعالى فإنه لم يَكِل إلى أحد حقّ العفو عنها، فليس لأحد -أيًّا كان- أن

ينوب عن الله فيها، وخلاف ذلك إساءة أدب مع حقوق الله.

نعم، قد تلبس الأهواء والرغبات لباس الأفكار، فيحسبها الإنسان -بتزيين من الشيطان والنفس الأمارة- فكرًا، وربما يرتكب أخطاءً تحت تأثيرها؛ لاحظوا هذا في بعض المناقشات الفضائية التي ينتقد الناس فيها بعضهم بعضًا بلا هوادة، فهم دائمًا ما يقولون عكس ما يقوله الطرَف الآخر، سواء أكان ما يقوله صحيحًا أم خطأً، وكأنهم انقطعوا للمعارضة فحسب، حتى لو فرضنا المحال وقال مناظره: "بيدي مفتاح الجنة، ادخلوها الآن بإذن الله وفضله"، وانفتحت أبواب الجنة على مصراعيها أمامهم بإشارة منه، ورأوا بأم أعينهم جمال الجنة الأخّاذ، فلربما يقولون: "كلا، إننا نأبى دخول هذه الجنة، فإن هذا طريق الكسل والعطالة، ينبغي أن نسعى في الدنيا أكثر!" أي إن السفسطة في الرد ديدنهم حتى تجاه الأقوال والأفكار الأكثر منطقية وقبولًا؛ فهذا الضرب من الكلام وراءه الشيطانُ، والباعث عليه الهوى، ويتوهم الإنسان أنّه هو من فكّر وتصوَّرَ كل هذه الأمور.

وقد يسقط بعض المؤمنين في فخ الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء؛ فإذا ذُكّر أحدهم بالموت ألبس رغباتِه وأهواءه مثل حبّ الحياة وحبّ الأولاد والعيال والتلذّذِ بالدنيا لباس الخدمة، ويقول بدافع من هواه: "ينبغي أن أبقى هنا، وأن أبلّغ الحق والحقيقة لِأُناسٍ كثيرين"، يقول هذا والحق أن على كل مؤمن صادق أن تفيض نفسُه شوقًا إلى لقاء ربّه، وأن يستشعر شوقًا عارمًا للقاء سيدنا رسول الله ﷺ، وللجلوس على مائدة كل من سادتنا أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم، ويتنسَّم معهم عبير المناخ وتلك الألطاف، مع ما يجب عليه من يدفعه إلى أن يقول: "ربِّ أعوذ بك أن أتعجل لقاءك فأُسيء الأدب معك، فلا علم لي هل آن أواني أم لا؟".

والوجـدان حَكَـمٌ مهمٌّ للغاية فـي هذا الباب، فعلى الإنسـان أن يقوّم كل مـا يصـدر عنـه لاختبار وجدانـه تقويمًا دقيقًـا، وأن ينضبـط بالمعايير الصحيحـة فـي كل اختياراته وقراراته؛ فإن اسـتطاع فعل ذلك فقد اجتنب تلبيس الهوى والهدى والمنطقية والعقلانية بالرغبات والأهواء.

بوصلة النيّة وشعور المحاسبة

سؤال: ما الأمور التي ينبغي مراعاتها كي تُشير إبرة النية إلى أفق الإخلاص دائمًا؟

الجواب: على الإنسان أن يكون مخلصًا في قوله وفعله كلِّه ليبلغ رضا الحق تعالى؛ لأنه إن كان العمل جسدًا فالإخلاصُ روحه، وإن كان جناحًا فالإخلاص هو جناحه الآخر، ولا حياة لجسد دون روح، ولا يمكن الوصول إلى الهدف إلا بجناحين، ربّ كلمةٍ تُقَال بإخلاص لها ما لها من القدر عند الله تعالى، تتحدث عنها الملائكة فيما بينها، وتجعلها وِردًا لها، وتتخذها الأرواح تسبيحًا تردّده.

إذا انبعثت الكلمات من وَتَر القلب الحسّاس، وحرّكتْ ساكنَه رِيشةُ الحَماس، فإن الألسنة تتناقلها وتطيرُ بها حتى إنها لتصل "حظيرة القدس"؛ وهذا الضرب من الكلمات التي تقال بصدق وإخلاص تظلّ دائمًا تفيض حسناتٍ في صحيفة قائلها طالما الذاكرة الإنسانية ما زالت تعيها؛ إذ تتكاثر كل كلمة من هذا الضرب ولا تتناهى بفضل نُسَخها وصُوَرها.

أعمال أهدَرتها المباهاة

قد يخسَر المرء حيث يُرجَى الربح؛ وذلك فيما إذا راح يصبغ الأمر بصبغته الشخصية، ويسعى لإثبات ذاته من خلال الحديث عن نفسه وجهده؛ ومرادنا بحديثه هذا كلامه، ونَفَسُه، ونبرة صوته، وقَسِمات وجهه... فيُحرم المكافأةَ المباركة المذكورة من قبل.

فمثلًا؛ ما أَجمَلَ وما أروَع وِرد "سبحان ربي العظيم"، و"سبحان ربي الأعلى"، و"ربنا لك الحمد" في عبادة علوية مثل الصلاة التي تطوف بالإنسان في سماوات الخلود، وتبلغ به عالم الملائكة، وكم هو عملٌ خليق بالتقدير؛ غير أنَّ هذه التسابيح تصير كلماتٍ ميتة، مهيضةَ الجناح، عاجزة عن التحليق، وتصير عبادة الصلاة الجميلة قالبًا بلا روح واسْمًا بلا مسمّى إن خطر ببال من يردّد هذه التسابيح: "إنني أسبّح، فليسمعْني الآخرون".

أجل، لو نوى العبد -ولو بنسبة واحد بالمائة- أن يُسمِعَ الآخرين هذه التسابيح فقد ضيّع روح تلك الكلمات ونسفها نسفًا.

ومثلُها كل الأعمال الأخروية كالأذان، وإقامة الصلاة، وقراءة القرآن فيها... فمثلًا إن تتبع الإنسان وهو في الصلاة لجرس لمعاني القرآنية، وانقياده لجريان ذلك الشلّال شيءٌ، وسعيه للتعبير عن ذاته في الصلاة بتباهيه بصوته شيء آخر مختلف جذريًّا، وليُعلَم أن الحصة التي يأخذها الإنسانُ لنفسه من العبادات، ينقص مقدارها من الأجر عند الله تعالى، وتغدو عائقًا يمنع ذلك العمل من أن يُحلِّق عاليًا، كطائر قُصّ جناحاه.

إذًا على الإنسان أن يَحْتَبِسَ في الإخلاص في كل عملٍ يضطلع به، فيبدوَ للعِيان صغيرًا إذا نُظر إلى ظاهره لكن بشرط ألا يكون أسوة سيئة، والمعنى أنه لا بد أن يكون مثل كوخ صغير ظاهره متواضع وجوانيّتُه أكثرُ سحرًا للعيون من قصرٍ شامخ.

مأوى المحاسبة

على الإنسان أن يستصغر نفسه ويحقِّرها، حتى إذا نظر في المرآة قال: "يا الله! لما تأمّلتُ عالمي الداخليّ رأيتُ نفسي قد هَوَتْ من مستوى الإنسانية إلى درك الحيوانية، ومع ذلك يأبى الله أنْ يمسخ صورتي صورة حيوان".

وعليه أيضًا أن يصارع نفسه ويُفْحِمَها، فيقولَ عمَّا قدَّمه من خدمات في سبيل الحق والحقيقة: "لو استنفدتُ كل ما آتاني الله من طاقات لاستطعتُ تبليغ الحق والحقيقة بأفضل مما فعلت، ولكنني أخفقت في استثمارها حقّ الاستثمار في هذا السبيل، بل أهدرتُها، فأين المروءة والوفاء للإسلام والقرآن؟ وا عَجَبا لِمَ لَمْ أُمْسَخْ حجرًا مثل "أوديت" حتى الآن".

إن النظرة إلى النفس على هذا النحو تثير فيها رغبةً في الترقي؛ لأن الانسان ينشد الكمال دائمًا، فإن كان يرغب بالارتقاء إلى أعلى من مكانته، فعليه أن يوقن أنه في مكانة أدنى من التي ينبغي أن يكون عليها.

وإن الرحلة إلى اللامتناهي لا تعرف الانتهاء والانقطاع، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿**اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا**﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/٣)، وهذه الآية الكريمة تدلّنا على أفق الأكمليّة والأتميّة؛ من أجل ذلك لا بدّ أن نكون في سيرنا إلى اللامتناهي مسافرين لا نعرف الشبع، حتى وإنْ شربنا يومًا كأسَ المحبة والعشق

مـن لدن يد الذات الإلهيـة المنزَّهة عن الكَمّ والكَيف، لَكان علينا أن نظلّ نقول: "هل مِن مزيد؟ هل من مزيد؟".

وبلـوغ الأكمليـة والأتميّة لا يتأتى إلا بمحاسـبة الإنسـان نفسـه على الـدوام، وإلا فـإن عد الانسـانُ ما هـو عليه كمالًا، وتحرك مـن منطلق "لا مزيد على هذا!"، ولم يحاسب نفسه ولم يواجه قصوره وعيوبه، حُكِم عليه بالجمود حيث هو طوال العمر، واستحال عليه ألبتة أن يتذوق طعم الكمال.

ولتركِ محاسبة النفس وجهٌ سلبيّ آخر:

إن من لا يحاسـب نفسـه ولا يحقّرها لا يلبث أن ينشـغل عبثًا بعيوب غيـره بلا وعي، ثـم إذا اجتمعت أنانيـة الجماعة بأنانيته الشـخصية، عظم احتمال الخسران في الدنيا والآخرة، يقول الأستاذ بديع الزمان: "إن أنانية الجماعـة تعـزّز أنانيـة الفرد؛ لذا فمن الممكن أن يُقـال: إن أنانية الجماعة آفةٌ عظيمة تَقتل وتُبيد وتهلك"؛ وسـبيل الوقاية من هذه المخاطر كلّها هو المحاسبة الدائمة للنفس ومقاومتها باستمرار.

فمثـلًا، مـن الممكـن أن يهيّئ الله لإنسـانٍ فرصةَ القيـام بمهامّ عظيمة فـي بقـاع مختلفة من العالم، فيسـتطيع ذلك الإنسـان وحـده فتْحَ قلوب النـاس فيها، وسـنَّ الطريق نحو بناء الحيـاة العلمية والمعرفية هناك؛ ومـع كل هذا النجاح عليه أن يقول في نفسه: "لعل ثمة أعمالًا لم تُستَوفَ لأنني أنا من قام بهذا الأمر، ولو أنَّ مكاني شـخصًا آخَرَ من أهل الفكر والقلب فلربما كانت الخِدْمات أضعافًا مضاعفة، يا ليت هذا الأمر لم يُوكَلْ إليّ".

تلك هي روح المحاسبة الحقيقية للسائرين في سبيل الله.

ومن ثمار هذه المحاسـبة عدم الانخداع بمغـالاة الآخرين وتملُّقِهم؛ أي لـو قـام الإنسـان بالنقد والتحليـل والتقويم لنفسـه عدة مـرات يوميًّا،

وضبَطَ علاقته بربّه وفقًا لهذا، لما التفت إلى ثناء الآخرين عليه ولَقال في نفسه: "أنا أعرفُ بنفسي، قد يكون للشيطان يدٌ في هذا الأمر"، وهكذا يقي نفسه من شِراك الغرور والكبر.

اللهم املأ قلوبنا بشعور المحاسبة، ووفِّقنا إلى حسن أداء ما كَلَّفْتَنا به تفضُّلًا منك وإحسانًا.

!آمين